السخريّة مَلَاذٌ ولذّة

نشر في المجلة العربية الصادرة في الرياض

يصعب تعريف السخريّة؛ ويُختلَف فيها أهي موضوع أو أسلوب، والأقرب في هذا أنها ما يبثّه المنشئ من أساليب قد تتضمّن التظاهر بالجهل، وقول شيء في معرض ذكر شيء آخر[١]، ويعرّفها بعضهم بأنها: "نوع من الهزء، قوامه الامتناع عن إسباغ المعنى الواقعي أو المعنى كلّه على الكلمات، والإيحاء عن طريق الأسلوب، وإلقاء الكلام بعكس ما يُقال"[٢].

ومهما نختلفْ في تحليل المراد بها نتفقْ على أنها تتضمن الهزءَ المبطّن أشدّ من الظاهر، والتعريضَ أكثر من التصريح، ومحاولةَ إضحاك المتلقي على المسخور منه، وأنها طريقة في الكلام يعبّر بها الشخص أحيانًا عن عكس ما يقصده بالفعل، وأن هدفها هو في الغالب الهجاء الخفيّ أو التوبيخ أو الازدراء[٣].

والسخريّة تتجلّى في النص الأدبي بالوحدات الجزئية كالكلمة، أو القول، أو المقطع اللغوي، وتسهم الدلالات الضمنيّة لكل هذه العناصر في تحقيق السخريّة وإبراز أثرها[٤].

وقد اتسع الأدب الساخر في الأدب العربي، وتعددت نماذجه، وفي التراث العربي نوادر اعتُمد في صياغتها على السخريّة، وهي بذور لهذا الفن الذي زادت وتيرته عند جمهور من الكتاب في العصر الحاضر، وأبرع الساخرين في التراث هو الجاحظ الذي جعل البخلاء مادة لسخريته المتينة البليغة المتغلغلة إلى أدق تفاصيل النفوس وأسرارها، وكانت رسالته (التربيع والتدوير) نهجًا ساخرًا متفرّد الملامح، وفيها تتجلّى لذّة التعبير الفني الرفيع.

ومنهم أبو العيناء الذي نُقلت له نوادر ناضحة بالسخرية (قُدم له طعام في قدر، وكان أعمى، فمدّ يده فلم تقع إلا على عظام، فقال لمضيّفه: فديتك! هذه قدر أم قبر؟)، وفي أخبار كثير من الظرفاء والمتحامقين في التراث نصوص مندرجة في السخريّة، وهي حريّة بدراسة تجلّي مظاهر الإبداع فيها، ومنها رسالة أبي العَبَر إلى أبي العِجْل، وكلاهما متحامق، وفيها كلام قد يُحمَل على الحماقة المستحكِمة، إذ قال: "من أبي العَبَر الرقيع ذي الحسب الرفيع لأبي العجل الوضيع: إني ولّيتك خراج ضِياع الهواء، ووكّلت بك البلاء، وفوّضت إليك...عَدَّ ثمار الأشجار، وكيل ماء الأنهار، وإحصاء حدقات البوم، وورق الزقّوم، وقسمة الشوم بين الهند والروم...وأمرتك أن تجعل ديوانك بالمغرب

---

(١) ينظر: جبور عبدالنور، المعجم الأدبي، ١٣٨.

(٢) السابق، نفسه.

(٣) ينظر: مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، ١٩٨.

(٤) ينظر: عبدالمجيد نوسي، السخرية ومراتب المعنى، ملف جذور، ج١١، مج٦، ص٤٨٤.

ومجلسك بإفريقية، وعيالك بـــمَيْسان، وإصطبلك بأصبهان، ومطبخك بحرّان...وخلعت عليك خفّي حُنين، وقميصًا من الدَّين، وسيفًا من حَيْن، وسراويل من شَين، وعمامةً من سُخنة عين، وحملتك على حمار مقطوع الذنب والأذنين، مكوّر الرجلين. وأمرتك أن تطوف على عملك في كل يوم مرتين. وكُتِب الأربعاء غداة الأحد بعد العصر لست مضت من شهر ربيع الأول سنة ثمانين إلا مائتين"[٥]. إنه نصٌّ ينضح بالسخريّة من الجِدّ، ويقلب الحقائق، ويجمع المتناقضات؛ وهذا نابع من طبيعة أبي العَبر المؤثرة للهزل، ومن نفسيته، فقد واجه انصراف الناس عن أدبه الجادّ، بأن أنشأ لهم أدبًا هازلًا ساخرًا، يجعل العقل كلَّه في موضع السخريّة.

وأبو العَبَر هذا سأله الإمام ثعلب النحوي: هل الظبي معرفة أو نكرة؟ فقال: إن كان على المائدة فهو معرفة، وإن كان في الفلاة فهو نكرة، فقال ثعلب: ما في الدنيا أعرف منك بالنحو. وجوابه وتعليق ثعلب كلاهما داخلان في السخريّة، وهما يختصران كلامًا كثيرًا، وربما بنينا عليه –بالنظر إلى ما يُعرف عن أبي العَبر– أنه يسخر بالعلم الذي لا يجد له أثرًا في حياته المادّية. وهذا يؤكّد أن السخريّة قد تترجم حاجة روحية، فالمجتمع يسحق الأديب بلا مبالاته وإنكاره، فيسحقه الأديب بأن يسخر منه ويحتقره[٦]، ويبدو لي أن هذا هو الذي سيطر على زكي مبارك، فكانت سخريته سحقًا للمجتمع، وإظهارًا لنفسه واعتزازًا بها، وحسبنا كلمته التي قال فيها: "التواضع أبغض خصلة إليّ".

والخبران عن أبي العَبر يفضيان إلى ذكر أن السخريّة في كتب التراث مرتبطة بالجواب المسكت، وبرسائل لطائفة من المنشئين. وفي هذا مجال لمقالات مطوّلة وأبحاث كثيرة.

أما السخرية في أدبنا الحديث فهي ظاهرة في نتاج جمهرة من الكتاب، منهم من ظهرت عنده في سيرته الذاتية كالشدياق في (الساق على الساق)، ومن ظهرت في مقالاته كالمازني، والطنطاوي، وزكي مبارك، وحسين سرحان، وعلي العمير، ومن استعملها في كتابته النقدية، كمارون عبود. وانبساطها في أجناس متعددة يعني أنها فنّ عابر للأجناس؛ وهذا يعطيها ثراءً وتعددًا في المسالك.

إن الساخر ينطلق إلى سخريّته من منطلقات أهمها أنه لا يريد التصريح بالمعنى المباشر، وهذه سمة فنية عامة في فنون القول، ومنها أنه يستطيع إيصال الفكرة مكثّفة، محققة الغايات منها أكثر مما لو استعمل لها التعبير الصريح المباشر، يقول بعض الساخرين واضعًا الإحصاءات التي تُقَدّمها بعض المؤسسات: "الأكاذيب ثلاثة: الأكاذيب، والأكاذيب اللعينة، والإحصاءات"، ولعلك لحظت اعتماد

---

(٥) نثر الدر، ٢٩١/٧.

(٦) ينظر: أدونيس، مقدمة للشعر العربي، ٤٠. (نقلاً عن: جبور عبدالنور، المعجم الأدبي، ١٣٩).

الساخر على المفاجأة في خاتمة النص، وهذه استراتيجية ذكية؛ لأن الترقب المفضي إلى دهشة أليق بالفن من دهشة تظهر في بداية النص.

وأكثر ما لحظته عند كثير من الساخرين المعاصرين أنهم كَلِفون بموضوع العلاقة بين الرجل والمرأة، ربما لأنه موضوع مطلوب، والاهتمام به أوسع من غيره، فضلًا على ما يهيئه من معانٍ وفكَر تثير الحساسية، وتعين على إفراغ العواطف في قوالب غير معهودة، كقول بعضهم: "لا تطلبُ الفتاة من الدنيا إلا زوجًا، فإذا جاء طلبت منه كلّ شيء"، وهو مليء بمعانٍ مخبّأة، وقول الآخر: "للرجل الكلمةُ الأخيرة، وللمرأة ما بعد الأخيرة"، وهاهنا يمكن أن يكون مدار السخرية هو الرجل الذي يكون في موضع الإشفاق لضعفه في مواجهة المرأة، أو تكون المرأة نفسها هي مدار السخريّة؛ لأنها تُصَوّر في منزلة المتحكم، المستكين وهو الغالب. وفي نص ثالث: "المتفائل هو من يظن أن زوجته ستضع سماعة الهاتف بعد أن تقول: مع السلامة يا ماما".

ومن المهم أن أشير إلى استسهال فن السخرية، والظنّ بأنه هو القدرة على الإضحاك، وهذا قد ينطوي عليه بعض الأدب الساخر، ولكن ينبغي ألا ننتظر من السخريّة أن تثير الضحك مطلقًا، إذ إنها ربما أثارت الحزن والتشاؤم والنفور من الناس، أو الامتعاض والشفقة؛ لما تختزنه من كشف للمستور وإيغال في التنفير من ذلك المسخور منه إنسانًا كان أو فكرة أو موضوعًا. بل إن أبرع أساليب السخريّة هو ما أدهش وأوجع دون أن يثير ضحكاً مبتذَلاً[٧].

تأمل هذه الكلمة: "يتكلم بعض الناس في أثناء نومهم، أما المحاضرون فيتكلمون في أثناء نوم الآخرين"، ألا تشعر أنها تثير فيك التشاؤم من حال المتلقين، والإشفاق على المتكلمين في الندوات والمحاضرات؟ وقريب منها قول الآخر: "قبل أن أتزوج كان لدي ستُّ نظريات في تربية الأطفال، أما الآن فعندي ستة أطفال وليس عندي نظريات"، فالسخرية فيه متجهة إلى النظريات التربوية المثالية التي تذوب تحت شمس الواقع والتجارب الحيوية.

وعلى ما سبق فالسخريّة ذات المنزع العالي هي التي يتوصّل إليها الكاتب برفق، دون أن يشعر كثير من قرائه بأنه يسخر، مثلما نجد في قول محمد الماغوط: "في صغري كنت أسمع بائع الصحف يصيح: (الوطن) بليرة، (العروبة) بليرتين. كنت أظنه يعني الجرائد!". إن مرارة السخريّة ظاهرة في الجملة الأخيرة، وبها استطاع اختصار كلام طويل، وكثّف المعنى المقصود.

---

(٧) يراجع: شفيق جبري، أحمد فارس الشدياق، ١٢٨. وشوقي المعاملي، الاتجاه الساخر في أدب أحمد فارس الشدياق، ٢١.

وفي قوله: (كنت أظنه يعني الجرائد) تتّضح وظيفة القلب الدلالي الذي يحقّق السخريّة بوساطة دلالة متنافرة منـــزاحة، ذلك أن السخريّة تعتمد صيغة لُعْبيّة سطحيّة تهدف إلى إخفاء دلالة مشفوعة بالاستهزاء، فالسخريّة هنا مستندة إلى المفارقة اللغوية، وتتحقق باعتبارها تراكبًا لسياقين دلاليّين: ما يقوله، وما يرغب في إبلاغه، فيصبح المتلقّي تجاه دالٍّ واحد يُحيل إلى مدلولين(٨).

وأختم كلمتي بالإشـارة إلى أن أوعية النشـر اليوم –وفيها أوعية التواصـل الاجتماعي والإعلام الجديد– أتاحت للمتابع أن يقرأ نصوصًا ساخرة، قد تفقد قيمتها بانتهاج كتّابها لهجاتٍ عامية تقلل فرص التواصـل العام؛ لأنها ذات صـفة جهوية أو إقليمية تقلّل الأثر، وتضـعف المشـاركة الوجدانية والعقلية. ثم إني أخشى على الأدب المنشور في وسائل التواصل الاجتماعي ألا يطول عمره؛ لأنه مرتَهَن بها، فإن غابت غاب معها، والبقاء غير مضمون.

(٨) ينظر: عبدالمجيد نوسي، السخرية ومراتب المعنى، ٤٩٠.